توجيه الفرد والامة

—٧—

بقلم : الاستاذ هادي العصامي

في التجرد عن المادة وعدمه

وقبل كل شيء يجب أن تتخذ الوسائل لاصلاح الاخلاق التي هي اساس كل اصلاح : وتهتم المدوسة باخلاق النشء الملائمة للبيئة والمحيط ؛ لان التعليم لا ينفك عن التربية ، فلا يمكن تكوين اخلاق عالية بدون القاء المعلومات الاخلاقية ، وخير طريق ينتهي بنا اليها هي التربية السلبية .

وقبل ان ندخل الباب يجب ان نعطي لمحة عن استقلال العقل بذاته ، وعدم استقلال النفس ، وتطوره في النمو حسب ادوار الحياة الانسانية ، وعن كيفية نمو مجموعة القوى في الانسان منذ الطفولة ، وكيف تتكامل واحدتها بالاخرى ، وتدرجها في النمو تدريجاً يتكفل نمو الادراك والعقل ، لما لذلك من العلاقة في البحث .

مما لا ريب فيه ان العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته وافعاله ، فلا يحتاج في افعاله الى المادة ، وذلك كإدراكه الكليات والحكم بحدوث العالم بعد الحكم بتغيره ، والحكم بأن ليس بين طرفي النقيض واسطة ؛ وان الكل أعظم من الجزء ؛ فلا واسطة بين العقل ومدركاته واحكامه ، حتى يحتاج فيها الى المادة ، بخلاف النفس فانها وان كانت جوهراً مجرداً في ذاتها ، لكنها تحتاج الى المادة في افعالها ، فايجادها الكتابة مثلا موقوف على المادة ، فهي بدون اليد واليراع والورق والحبر لا يحصل لها ما تريد .

ولما كانت النفس غير مستغنية عن المادة في افعالها ، استحال عليها أن تقوم بذاتها فهي وان قامت بذاتهـــا في عالم التجرد ، واستقلت بنفسها في عالم الارواح ، فليس من الممكن أن يحصل لها ذلك الاستقلال في عالم المحسوسات ، لأنها جوهر ؛ وان تجرد بذاته ، فلا يقوم بذاته في افعاله ؛ بخلاف الاعيان الخارجية فانها قائمة بذاتها ، ومستقلة بنفسها ، لأنها مادة ، والمادة تقوم بذاتها دون الاعتماد على شيء آخر ، غير ان المادة قد تكون بحاجة الى الجوهر النفسي ، لكن لا من باب العلة والمعلول ؛ بل احتياجاً كمالياً ، فالتحيز في الحجر والشجر ، غير مفتقرين الى وجود النفس الانسانية في الجسد .

فالنفس ليس لها وجود يشبه وجود النبات والحيوان والمعادن ، وانما توجد بوجود الاجساد ، فالاجساد هي الآلة التي تتفهم بها وجود النفس ، كالذبالة والزيت لنور المصباح تقريباً ؛ وإلا ان النور له وجود خارجي ، اما النفس فانا نستدل على وجودها بآثارها ، وهذه الآثار تتدرج في النمو والتطور منذ سني الحياة الأولى للانسان ، حسبما يقتضيه نظام الطبيعة .

النفس في دور الطفولة والادراك

ففي السنة الأولى من دور الطفولة يشاهد في هذا المخلوق الذي زاده الضعف لطفاً ورقة من القابلية الى الحركة والعمل ، مايكشف لنا عن قوى مودعة فيه ، لها استعداد الى النمو والتهذيب والانطباع بأي طابع كان ، كما يبعث الى الايمان بأن قوة خفية تنفخ فيه الروح والادراك شيئاً فشيئاً ، ثم ترتسم على شفتيه بسمة جميلة خلابة ، ثم تزداد يوما فيوما حركاته وضوحا ، يعبر لنا في تلك الحركات عما يختلج في نفسه ، فبصوت مبهج مرة ، ومؤلم اخرى ، وتارة بدمعة رقيقة ، تمثل وداعة الطفل ورقته ؛ وهذا يجعلنا نؤمن كل الايمان بأن شعاع الفكر شعّ شيء منه في نفس

أصلح الاخوان الحاضرين ، الى ان قال وأما ماتركت من مال فأجمعوه واخرجوا منه الديون اولا اي الديون المعلومة واني لا يمكنني ضبط ديوني في ايام حياتي لانها تزيد وتنقص يوماً فيوماً فما تبين للوصي وتيقن فليؤده ولا يناقش الناس فيـــه الى آخر وصيته هذا ما وصل الينا من عقايده وما انطوت عليه سريرتـه في اول عمره وقرب حلول اجله سجلتها هنا ليعرف المنصفون ان الناس لا ينصفونا ولا يراقبون الله فينا ولا يتورعون في حقنا ولا نسأل الله سبحانه الا ان يصلح وجدانهم وان كان لهم اشتباه في حقنا فنسئل الله تعالى ان يرفعه ،

عبدالله الموسوي

يتبع

الطفل ، وكلما نمو يوما يقوى ذلك الشعاع في نفسه بدرجة نموه فيعبر عما اختلج فيها بشتى الطرق ، حتى اذا انتهت السنوات الاولى من حياته ، يدخل في دور الادراك ويصبح أهلا لتميز الفروق بين الاشياء .

آثار النفس

ان هذه المظاهر اول الآثار التي تزداد خطوة خطوة ، وهي كما تدل على حيويته ؛ لهي خير شاهد على وجود النفس ، فآثار النفس ادراك الحس والذهن ؛ اما الآثار الخارجية كالكتابة والقراءة ، فلا يتعلق لنا غرض بها .

أما قوى الحس فهي اول آثار النفس ؛ وتظهر في سني الحياة الاولى ، كادراك اللذة والألم ، والعلم بصفات الاشياء التي ينشأ عنها الاحساس الداخلي .

واما قوى الذهن ؛ فهل تظهر دفعة واحدة ، أم بعد أمد طويل ؟ .. لا شك ان قوى الذهن تنمو نموا تدريجياً ، كما تفتح الاكمام عن الزهور ، أو كالسائر الى جهة ما ؛ فانه لا يبلغ الجهة المقصودة الا في السير المتواصل خطوة خطوة ، وهكذا يكون إدراكه الاشياء مبتدئاً من البسيط الى المركب ، ومن المحسوس الى المجرد ، ولو ظهرت دفعة واحدة ؛ لخبا نوره وهو في المهد قبل ان يستنشق نور الحياة .

نمو العقل

وأما قوى التجرد والمحاكمة ـ العقل ـ فله أدوار متتابعة ولن يبلغ الدرجة النهائية من النضج ، إلا ضمن نظام معين يتناسب والتقدم في السن ، قد تكفل به ما شرعته الطبيعة من سنن التطور والارتقاء ، فلكل من الذهن والعقل أدوار نشوية كما للجسم ، واستعدادات للتقدم والتطور التدريجي ، بحيث يكون نموه بطيئاً ، يكاد لا يشعر به ، ولهذا النمو البطيء نتائج جميلة ، لها الاثر في تقويم الحياة الانسانية ، لجعلها في أرقى مستوى ـ هي ـ تنظيم قوى العقل والذهن وتدريبها ، وتقوية الادراك واتساعه ، وشحذ الفكر وصقله في بوتقة التجارب التي لها ابلغ الاثر في نضج العقل فان (العقل غريزة تربيها التجارب) وهذا هو الذي يجعل فيه استعدادات لارتسام الصور ، دون أن تنعدم منه صورة ما في انعكاس صورة ما فيه .

انتقال الصور

وأي طريق ينقل الصور المحسوسة وأوصافها الى الاحساس الداخلي ، ويرسمها في سجل الحافظة التي هي إحدى القوى التي تعتمد عليها النفس لاختزان تلك الصور ؟ ! .

لاشك هي الحواس الخارجية ، فوراء هذا الاحساس مشاعر (حواس) داخلية ، تتحول فيها الصور المحسوسة الى صور معنوية ؛ ووراء هذه الحواس الداخلية قوة القوى ، وان شئت فسمها (الوجدان) وبأجلى عبارة (الضمير) تلك القوى التي يدرك بها الانسان انه يعقل ، كما يدرك انه يعقل ذاته ، ويفكر ويدرك انه يفكر ؛ ويدرك بها إدراكه ، ولولا هذه القوى لما كان باستطاعته ان ينتزع الصور المعنوية من الصور الحسية ، ويصل الروحية بالمادية ، واذ ذاك نراه قد وصل الى معرفة نفسه ، ومعرفة النفس اساس كل معرفة ، ولكن متى يعقل انه يعقل ويدرك انه يدرك ؟ ..

معرفة النفس

لا شك ان ذلك منوط بالتربية والتهذيب اللذين يتناسبان مع احوال الانسان الطبيعية بأن يتفقا ونمو القوى التدريجي ؛ وان تهذب كل قوة بما لها من العلاقة بالأخرى ، فاذا تدرجت النفس في التربية والتهذيب تدرج القوى في النمو ؛ حتى تنال اسمى درجة من الثقافة ؛ فقد بلغت من النضج حداً ، اهلها لأن تدرك ذاتها ، وتدرك انها ادركت ذاتها .

فالنفس اذا كانت تستنير بذاتها وبا نمو فيها من القوى نمواً طبيعياً ، وتستصبح بانوار التربية الصحيحة والثقافة العالية تراها تتكامل ويتكون فيها نور داخلي ينير جميع القوى النفسية ، واذ ذاك تتجرد من سلطة المؤثرات الخارجية ، وتدخل تحت سلطان العقل مقيدة بسلسلة من التفكير الصادر عن قوة الاحساس الداخلي وسرعة التنبه ، واذا بلغت النفس هذه الدرجة الرفيعة ادركت ادراكها واذا ادركت انها تدرك ، فقد عرفت نفسها ، ومن عرف نفسه فقد عرف كل شيء ؛ ومن جهل نفسه ، فقد جهل كل شيء ، وان اعطي بسطة في العلم ؛ لأن العلم شيء ومعرفة النفس شيء آخر ، واذا عرف المرء نفسه ؛ فقد عرف النفس الكلية بكل اطوارها .

[يتبع]

هادي العلمي